انكلترا : من انطوني هارطلي

في ١٩٥٧ ظهر في لندن كتاب بعنوان « اعلان » يحوي مجموعة من المقالات لعدد من الكتاب ، بينهم لندزي اندرسون وجون اوزبورن وكنث تاينان وجون وين وكولين ولسون . ولم تكن لهذه المقالات اهمية فكرية فذة ، وما اثار اهتمامي فيها هو لهجتها التي تنم عن غيظ واستياء دون ان يكون ثمة مبرر واضح لها . فالمساوىء التي تهاجمها مساوىء ثانوية — كعدم وجود مسرح قومي ، ورتابة الدعاية المستمرة عن الاسرة المالكة ، والكنيسة الانكليكانية ، وآراء الكتاب الآخرين المشتركين في وضع الكتاب — ، لكن اللغة المستعملة كانت متطرفة في العادة وهستيرية في الغالب . هذا النزق نفسه والغيظ من دون دافع نجده ايضاً في جيمي بورتر بطل مسرحية اوزبورن « السخط على الماضي » ، التي مثلت على مسارح لندن قبل صدور « اعلان » بعام واحد . وفي هذا الوقت ايضاً بدأ تعبير « الشباب الغاضبين » يظهر في الصحف . وكان السؤال : وما الذي يجعلهم غاضبين ؟

اعتقد اننا كي نفهم هذا المرض علينا ان نبحث في رد فعل المثقفين تجاه التغييرين الاساسيين اللذين طرأا على مركز انكلترا منذ الحرب : وهما فقدان بريطانيا لنفوذها في العالم مقروناً بانهيار الامبراطورية البريطانية ، وقيام دولة الرفاهية .

ان فقدان بريطانيا لنفوذها منذ الحرب لهو عامل رئيسي في الحياة المعاصرة وكان له اثر بارز في موقف رجال الفكر فيها . فالمفكرون اليمينيون اخذهم شيء من الحنين والتحسر على الماضي . اما اليساريون فكان رد فعلهم اشد تعقيداً : فقد كانوا دائماً ضد السلطة كسلطة ، وخاصة ضد السلطة المنبثقة عن استعمارية بلادهم . لكن هذه السلطة والنفوذ كانت الآن تتلاشى في اللحظة التي بدا انها تصل الى الايدي الصائبة ، عندما تولى الحكم حزب العمال . فظهر لهم ان بريطانيا كانت تفقد مركزها في العالم في الوقت الذي اخذت تتجلى فيه اهدافها التقدمية .

يضاف الى هذا ان اليمين واليسار كانا يشعران دوماً شعوراً مثالياً فيما يتعلق بامتلاك المستعمرات . وان الاهتمام الذي يبديه الآن المفكرون الانكليز بشؤون افريقيا ناتج الى حد عن شعورهم بانها تعرض علينا حالة ما زال عندنا شيء نقوله فيها ، وبانها جزء من العالم نستطيع ان نعرض فيه نياتنا الطيبة .

وربما كان هذا احد الاسباب التي جعلت حملة السويس تثير ما اثارته من عاصفة غضب . ذلك لان هذه المغامرة الحمقاء كانت نهاية حلم . فبريطانيا لم تعد دولة استعمارية باستطاعتها ان تفرض ارادتها على بقية العالم ، غير ان بريطانيا لم تعد ايضاً ذلك البلد النقي الذي تنازل عن استعماريته بملء ارادته . ان تبين هذه الحقيقة القاسية كان صدمة لليسار اكثر منه لليمين ، لانه قضى على الاسطورة التي كانت عنده .

هذه المشاعر كانت اقوى جداً فيما يتعلق بتأثير بريطانيا على الشؤون العالمية بوجه عام . فهما نحن ، لنا خبرة في السياسة تفوق خبرات سوانا ، ولنا نوايا طيبة ، ولنا معتقدات متحررة ، ولكننا عاجزون عن افادة اي احد آخر بها .

ولم ينعكس افول نفوذ بريطانيا في خسارتها لممتلكاتها البعيدة فحسب ، وانما في الازمات الاقتصادية المتتالية التي ألمت بها منذ الحرب ايضاً . ففي الوقت الذي كنا نتحدث فيه عن تخطيط المدن وتحسين الطرق والمدارس والمستشفيات ، كانت تقف في طريق مشاريعنا الازمات الاقتصادية الناجمة عن ان الجهود التي كنا

نبذلها للتكيف مع وضعنا الجديد لم تكن طموحة في مفهومها ولا فعالة في تطبيقها . وكان معنى هذا بالنسبة لرجال الفكر تقييدا مقيتاً لطريقة حياتهم الشخصية . وادى سياسياً الى شعور بانعدام الاستقلال – وهذا شيء اعتادته البلاد الصغيرة لكن بريطانيا وجدته شيئاً جديداً ومزعجاً . فشعر الاشتراكيون بالأسى لان الظروف منعتهم من تحقيق مشاريعهم التي حلموا بها طويلا ، وشعر المحافظون بأسى مماثل لاضطرارهم الاعتماد على العالم الخارجي .

ولم يكن غريباً ان يتخذ رد الفعل هذا تجاه التغير في ظروفنا شكل عداء لامريكا : فهاجمها المفكرون اليمينيون لعدم وجود تراث لها ولفساد الحياة فيها ، ووجد اليساريون في رأسماليتها وزعمائها العسكريين مجالاً للنقد تنفيساً عن كبريائهم الوطنية الجريحة ، كما اشترك كلا الطرفين في مهاجمة هوليوود وقصص الاطفال المرعبة المصورة والعنف الذي تتسم به الحياة الامريكية . وحصل الشيء ذاته بخصوص اوربا ، وتعالت صيحات احتجاج محمومة ضد اشتراك البلاد في السوق الاوربية المشتركة .

هذا عن شعور المثقفين الانكليز بالخيبة نتيجة تقلص حدود المجتمع الذي يعيشون فيه . لكن هناك دافعاً آخر لشعورهم هذا ، هو نتيجة خيبة املهم بدولة الرفاهية .

في سنوات الثلاثينات كان يعتقد الكثيرون ان حصول المواطنين على حد ادنى من العدالة الاجتماعية سيرافقه ازدهار الثقافة بينهم ، وان المخصصات لشؤون النشاطات الثقافية ستزداد كثيراً عندما يتولى الاشتراكيون الحكم . الا ان الواقع عندما جاءت دولة الرفاهية كان غير ذلك . فقد اخذ الناس يصرفون اوقات فراغهم التي اكتسبوها حديثاً في التفرج على برامج التلفزيون وخاصة ما لم يكن ثقافياً منها . ولم تزدد نسبة المخصصات من الدخل القومي المكرسة للثقافة ، بل ظلت المعارض والمتاحف بحاجة قصوى للمال في عهد تسنم حزب العمال للحكم . وما زالت المراكز الرئيسية في مدننا فضيحة من حيث الهندسة البنائية ، بالرغم من ان تقدماً بارزاً قد احرز في تنظيف الاماكن الحقيرة الوسخة . وما زال معلمو المدارس عندنا يتقاضون اجوراً منخفضة ، بالرغم من ان بنايات المدارس جديدة . وتخصص الحكومة منحة لمجلس الفنون لبريطانيا بأسرها لا تتجاوز ما تصرفه مدينة هامبرغ لوحدها على شؤونها الثقافية . هذا كله بعث في غالبية المثقفين شعوراً عميقاً بالخيبة وبالغيظ .

الا ان تقصير دولة الرفاهية في امور الثقافة لم يكن مقتصراً على اهمال السلطات الرسمية وحدها . فان التطور الذي أدى الى تحسن مستوى المعيشة لدى الطبقات العاملة حولها من طبقات ذات حضارة بروليتارية تتميز وتختلف من قطاع في البلد لقطاع ، الى طبقة ذات حضارة موحدة . فانتشرت الآن البضائع المتماثلة وشارك افراد هذه الطبقات في وسائل التسلية العامة عن طريق انتشار الاسطوانات والافلام والتلفزيون والراديو . لهذا فان تحسن مستوى المعيشة قضى على النظرة الرومنطيقية التي كانت لدى المثقفين عن الامكانيات الثقافية للطبقات العاملة . وعنى ذلك ان انتشرت طرق حياة الطبقات الوسطى التي كانوا يمقتونها ، وعنى في الوقت ذاته احساسهم بأنه لم تبق هناك قضايا يحاربون من اجلها .

اما المثقفون الذين يمقتون دولة الرفاهية جهاراً فكان رد فعلهم لتقصيراتها بسيطاً واضحاً . فقد استبد بهم شعور الحنين الى حضارة غابرة ، وأعملوا النقد للامبالاة الدوائر الرسمية بالقيم الثقافية . وكان أبرز وأقوى تعبير عن هذا النقد ما جاء في كتابات جون بتجمان ، والجدير بالذكر ان « قصائده المجموعة » باعت من النسخ اكثر مما باعه أي ديوان منذ زمن طويل ، وربما منذ كبلنغ .

واما المثقفون المتحررون الذين لم يكن ايمانهم بصواب دولة الرفاهية ليسمح لهم بالاعتراف بخيبة أملهم في نتائجها ، فكان وضعهم مختلفاً . وقد أمدهم رجوع المحافظين الى الحكم وتولي ماكميلان للسلطة بمنجى من

ورطتهم . فليست دولة الرفاهية هي البورجوازية والرتيبة ، بل انه مجتمع الرخاء الذي أقامه المحافظون والذي أدى ما وفره من ثلاجات وسيارات وماكينات غسيل الى افساد الشعب البريطاني وسوقيته .

لكن كانت هناك نتيجة اخرى لعدم الرضى عن حالة المجتمع الانكليزي الحاضرة ، هي ازدياد البحث في الوضع الحاضر للثقافة الانكليزية ازدياداً بالغاً . فان كل اهتمام رجال الفكر بشؤون السياسة المجردة قد قل ، فان القضايا الثقافية نجحت في دخول الحلبة السياسية . ولاقت قضايا كالاعدام والشذوذ الجنسي ومواعيد فتح البارات يوم الاحد وبشاعة المبـــاني الجديدة في لندن ، لاقت من القبول والاهتمام في اوساط المثقفين اكثر بكثير مما لاقته اية قضية سياسية بحتة . كل هذه القضايا ليست ذات طبيعة جماليـــة بحكم الضرورة ، بل هي اخلاقية ؛ ويجدر ان نذكر هنا انه نظراً لعدم ايمان غالبية المثقفين الانكليز بامكانية وجود حـــلول علوية فان الاخلاق تصبح مسألة ذوق ، وتصبح العلاقة بين مثل هذه المشاكل وبين الادب والفن والموسيقى اكثر ارتباطاً ووثوقاً .

وقد اتخذ هذا البحث في وضعنا الثقافي اتجاهين مختلفين : احدهما يعرض الوضع والآخر يحلـــله . فكتابا « التابوت المتألق » لدنيس بوطر ، و « مرآة للانكلوساكسونيين » لمارتن غرين وسواهما تندد بعـــدد من أوجه الحياة الانكليزية التي اعترضتنا في كتاب « اعلان » . فهي تهاجم غياب الجديد والحديث في انكلترا المعاصرة كما تهاجم ما فيهـا من تزمت ومن تعال وتكبر ، لكنهـا لا تحاول كثيراً ان تحلـل الاسباب العميقة لمرضنا . وما تأسف عليه هو أثر التصنيـع على الحياة الانكليزية ؛ لكنها لا تتفهم هذا تفهماً واضحاً ، بل تتضمن شعوراً بالخسارة يرتبط فيه زوال انكلترا القديمـة بالبعد الذي يفصل خريجي اوكسفورد وكيمبردج هؤلاء عن عائلاتهم التي هي من طبقة عاملة .

وقد أسهم في هذه المناقشة رتشرد هوجرت وريموند وليمز اسهاماً اكثر جدية ورصانة . فصور هوجرت في كتابه « منافع التعلم » صورة للطبقات العامـلة في الماضي والحياة التي كانت تحيـاها ، ونسب اليها درجـة مفرطة من الاكتفاء الثقافي . ويقارن هذه الصورة الزاهية بصورة اخرى للحياة كما نحياها نحن الآن : فيصف المجلات التافهة والافلام الرخيصة في السينما والتلفزيون والصحافة الحقيرة وسائر مرافق التسلية العامة . وقد عُرف هذا الكتاب بوصفه للفساد الذي طغى على الطبقات العـاملة في انكلترا بفعل مرافق التسلية العـامة والاستهلاك العام . وهذا الهجوم أشد وضوحاً في كتابي وليمز « الثقافة والمجتمع » و « الثورة الطويلة » ، حيث نجد ان وكلاء الاعلانات واصحاب الجرائد يلعبون دور النـذل الذي كان ينسبه اليساريون في الماضي الى اصحاب مصانع السلاح أو « تجار الموت » كما كانوا يسمونهم . ويبدو لي ان رأيه في الثقافة يقوم على كثير من التناقض في مفهومه لمعنى اللفظة ويهمل الناحية الفردية والارستقراطية لمهمات الفنان المبـدع . الا ان ما جذب هذا الرأي الى المثقفين اليساريين هو ما يذهب اليه من ان المسؤول عن بعض المظاهر الثقافيـة المنفرة (التي تأتت عن تطور وسائل التسلية العامة وارتفاع مستوى المعيشة لدى الطبقات العاملة) هو الرأسمالية .

ان علاقة المثقفين الانكليز بمجتمعهم قد تطورت في السنوات العشر الاخيرة من موافقة ورضى الى نقـد صارم مرير . لكن هذا النقد ، بعكسه في الثلاثينات ، ترك الجيل الجديد في حيرة من امره . فهو يريـد ان « يلتزم » ، ولكنه لا يعرف ماذا يلتزم . وهو لا يرضى بالحيـاة الانكليـزية المعاصرة ، لكن تحليـله لنقائصها لم يبلغ حداً من العمق يمكنه من اقتراح علاجات ، بل انه يشعر انه حتى لو اكتشف اسباب عدم رضاه فانه لا يستطيـع ان يفعل الكثير في اصلاحه . نتيجة هذا : الغيظ والنزق ، كما كان الحال في كتاب « اعلان » . ونتيجة اخرى : هي الحركات السياسية التي لا تبـالي بالعواقب ، كحركة نزع التسلح النووي التي قد تقضي على النمط السياسي الحاضر ولكنها لا تقدم شيئاً تستبدله به .